

خطاب السود.. رحلة البحث عن الذات والهوية والوطن
(مقاربة سوسيوثقافية في نماذج مختارة من الأدب الإفريقي)

The Discourse of Blacks a Journey in Search of Self, Identity and Homeland
"A Sociocultural Approach to Selected Examples of African Literature"

د. ابتسام بوطي

Bouti ibtissem

جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة (الجزائر)

Emir Abdelkader University, Constantine (Algeria)

i.bouti@univ-emir.dz

تاريخ النشر: 2024/03/02	تاريخ القبول: 2024/02/04	تاريخ الإرسال: 2023/08/07
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تروم هذه المقاربة إلى بيان ما تُعانيه الكتابات الإفريقية في طريقها إلى العالمية، باعتبار الأدب الإفريقي أدبا ناشئا ومُعْتَبَرا، نظير الحضور الدائم وسلطة المركز للأدب الغربية، وبوصف الأدب الإفريقي أدبا مُقاوما لكل التمثيلات التي جاءت بها خطابات القوة خلال فترة الحداثة واستراتيجياتها الكولونيالية، حيث مثلت حالة ظهوره لحظة فارقة وجوهرية من خلال الموضوعات التي عالِجها، وأساليب السرد التي جاءت بها الروايات الإفريقية في طرحها لقضايا الإنسان الأسود الماضية والزاهنة، كما صورت حياة البؤس التي صنعها الأبيض للأسود.

تتناول هذه الدراسة رحلة الكتابة الإفريقية في بحثها عن ذاتها ومحاولاتها لإثبات كينونتها واتِّمَّاءها، كما تكشف عقبات اللغة التي واجهتها خلال رحلة تأكيدها لهويتها الوطنية والثقافية.
الكلمات المفتاح: الأدب إفريقي، الذات، الهوية، الوطن، الثقافة.

Abstract :

This approach seeks to show what the African writings suffer on their road to reach Globalism, considering African literature as emerging and absent literature, against the permanent presence and central authority of Western literature. And as African literature resists all the representations that came from the discourses of power in the period of modernity and its colonial strategies. Where the moment of his appearance represented a defining and fundamental

* د. ابتسام بوطي: author@gmail.com

moment through the topics it dealt with and the narration methods that African novels came up with in presenting the issues of the black man, past and present, as it depicted the life of misery that the white made for the black.

This study deals with the journey of African writing in its search for itself and it attempts to prove its identity and belonging. It also reveals the language obstacles it faced during the journey of confirming its national and cultural identity.

Keywords : African literature, self , identity , home culture.



تقديم:

طالما عُدَّ الأدب الإفريقي أدبا مُغيبا فقد كُمَّ الفرد المبدع في أفريقيا لفترات ليست بالقصيرة، حيث عانى الإنسان وأدبه معا من هيمنة الاستعمار وتسلمه على الجوانب الحياتية لإفريقيا ما أدى إلى خلخلة بنية المجتمع سياسيا واقتصاديا وقبل هذا ترسيخ دونية الإفريقي فكريا وثقافيا.

أما الخطاب الإفريقي -الرواية خاصة- فقد ارتبط بالأوضاع العامة للمجتمع، فظهرت روايات تؤيد الاستعمار -في بداياته- وتطمح لتغيير كل ما هو أسود إلى أبيض حتى العادات والتقاليد، ثم جاءت روايات -مرحلة الاستيطان- لتصور معاناة الفرد الإفريقي/العبد، وحياة البؤس التي يعيشها في وطنه نظير حياة الرفاهية التي يعيشها الأوروبي/السيد، ومع مرحلة الاستقلال والثورة التي تحدث عنها فرانز فانون وأيد فيها عنف المستعمر ضد المستعمر ورفضه لكل سياسات الامبريالية، ومع حركة الزنوجة جاءت روايات التمرد ومحاولات تقويض الاستعمار وجاء خطاب السود ليثبت كينونة الفرد الإفريقي/الزنجي واتماءه العرقي وامتداده الضارب في عمق التاريخ، فأتخذ الكتاب الأفارقة من نصوصهم وسيلة لإسعاد صوتهم وإثبات ذاتهم وانتماءهم إلى إفريقيا السوداء، رغم أن الخطاب الإفريقي جاء بعدة لغات (محلية، فرنسية، انجليزية، برتغالية) إلا أنه كان مُثَقَّلا بالمعاني والصور، الرُّدُّ على الآخر ومواجهته كان ما ترمي إليه جل النصوص السردية التي تناولت حياة التهميش ومعاناة العنصرية وممارسات الاضطهاد من طرف البيض في بلاد السود.

عطفا على ما سبق يُعالج هذا المقال تساؤلات عدة أهمها:

هل استطاع الأدب الإفريقي أن يجد طريقه بعد التشويشات التي طالت الثقافة المحلية لإفريقيا؟
كيف ساهم المثقف الإفريقي في التحرير الوطني في ظل سياسة تكيم الأفواه والقمع الثقافي الذي عانى منه الكتاب السود؟

كيف تجلت العرقية والهوية الإفريقية في النصوص الروائية؟ وهل جاءت كرد قوي وواضح على كل التمثيلات الغريبة؟

أولا: تشظي الذات في الخطاب الإفريقي:

1-1-الأدب الإفريقي ما بعد الكولونيالي "طبيعته ودلالاته":

في كتابه "الأدب الإفريقي" يطرح الناقد علي شلش قضية مصطلح الأدب الإفريقي الذي شكّل منذ ظهوره اتجاهًا يحمل عديدا من الإشكالات لدى جمهور النقاد والباحثين فيه، ويمكننا القول هنا أنّ اللغة المتأهية مع لغة المستعمر والتي اتخذها كثير من الكتاب كأداة للتعبير الأدبي قد أنتجت أدبا إشكاليا من حيث هوية هذا الأدب واتّماؤه، والأدب الإفريقي مصطلح أطلقه جموع الرحالة والمبشرين الذين زاروا إفريقيا قبيل القرن التاسع عشر، فقد قام المستفرون -كما أساهم علي شلش- بتقسيم أفريقيا إلى قسمين: شمالي يتضمن أفريقيا العربية الإسلامية، وجنوبي يشمل أفريقيا جنوب الصحراء أو أفريقيا السوداء وقد طال هذا التقسيم أدب وثقافة القارة حيث أصبح الأدب الإفريقي يعني أدب البلدان المجاورة للصحراء الكبرى جنوبا وصولا إلى المحيط.

بعيدا عن الأهداف السياسية المضمرة التي أدّت إلى تقسيم القارة من قبل المستفرون وهو ما بدا واضحا خلال انتهاج المستعمر لسياسات أخرى ضد أفريقيا عامة والبلدان المسلمة خاصة لا يتسع المقام هنا لذكرها، فالواجب أن نعي جيدا أن قبيل قرن ونيف لم يكن سكان شمال إفريقيا بمعزل عن زونجها حتى القرن التاسع عشر، وإذا أخذنا بهذه القسمة الجغرافية بمعزل عن كل المرامي الاستعمارية فإننا سنفضّل حقيقة عن أخذها أدبيا وهذا يؤكده الانتشار الواسع للثقافة الإسلامية واللغة العربية في بلدان إفريقيا الجنوبية وما أظهره تأثير هذه الثقافة على الشعوب الزنجية خلال الفتوحات الإسلامية والانتشار الذي حققته هذه الأخيرة قبل بدايات الاستعمار الأوروبي، بمعنى أن حقيقة الثقافة العربية الإسلامية التي تعاقبت على تاريخ إفريقيا قاطبة تنفي حتمية انقسام القارة إلى قسمين: شمالي عربي مسلم/جنوبي مختلف غير مسلم.

يرى الناقد علي شلش في كتابه سابق الذكر -عدم إمكانية تقسيم القارة جغرافيا وثقافيا وإن لزم الأمر وأخذنا التقسيم الجغرافي الذي تبناه الأفارقة أنفسهم فإنه من غير الممكن أن نُصنّف المعنى الكلي في المعنى الجزئي، ومن ثمّ فأدب القارة ينبغي أن يشملها شمالا وجنوبا كقولنا أدب أوروبي وأدب آسيوي....

وإذا أردنا تحديد مصطلح الأدب الإفريقي في مفهومه العام فإننا نقصد ذلك الأدب أو النتاج الإبداعي الذي رسم بداياته مجموعة من الكتاب الأفارقة السود/الزنج كَمَا أطلق عليهم، ابتغاء إيصال صوت الأقليات المضطهدة وما تعانيه من عنصرية وازدراء من قبل الاستعمار الأوروبي، لتتسع هذه الخطوة وتشكل حركة أدبية سُمّيت بحركة الزنوجة والتي سنتطرق للحديث عنها في عنصر لاحق، ولا شك بأن الأدب الإفريقي واجه العديد من الإشكالات نظرا لمناطقه الجغرافية التي ينتمي إليها ولغته السردية كما أسلفنا الذكر، كذلك عامل اختلاف الأعراق الإفريقية والجنسيات المتداخلة التي كانت عقبة في تحديد هوية هذا الأدب وصفة كتاباته، بيد أن مضمون هذا الأدب أكد انتماءه بعيدا عن حدود الدول وقومية كتابه، لهذا عُرف الأدب الإفريقي بأنه أدب ما بعد كولونيالي نسبة لروح المقاومة التي تجلّت فيه، وقد انتشر بعدة اصطلاحات على نحو: الأدب الزنجي أو أدب السود نسبة إلى الكتاب الأفارقة/الزنج الذين أنتجوا وأبدعوا في تصوير وتوصيف حالة

الإنسان الأسود ومعاناته، كذلك فالأدب الأفريقي يبحث في زنوجة إفريقيا وروحها احتفاءً وتكريماً لها مُتجاوزاً كل التمثيلات الغربية/الكولونيالية.

يُعدّ الشاعر السنغالي ليوبولد سنغور أول من استعمل هذا المصطلح حين قال واصفاً الأدب الإفريقي: "إن الزنوجة تعبيرٌ هذا العصر عن ثقافة الزنحي الإفريقي، حيث ساقنا الفرنسيون سوقاً للبحث عن روح الزنوجة"1 إذن فخطاب السود هو اتجاه منظم ومنضبط يحمل مجموعة من الأفكار والرؤى تهدف إلى هدم الهيكلية النمطية/الغربية وتطرح البديل عبر الصورة الحقيقية للإنسان الزنحي وفق أقوال وممارسات كتابية تُشكل بنية كلامية كما أسماها الناقد برنادا مارشال في كتابه تعليم ما بعد الحداثة، تتكون هذه البنية ضمن تآلف للآراء داخل وسط اجتماعي ما، خاصة في أوساط الشعوب المهمشة والمضطهدة لتظهر في خطاب الأدب والثقافة لهذا المجتمع، وهذا ما أبرزه الأدب الإفريقي في طرحة لخطابات تناقض الخطابات الكبرى/المركزية، ما اضطر الغربي أن يعترف بكيونة ثقافة الأقليات ويستمع إلى صوت شعوبها ومن ثمَّ يُنمّر في مواجهة خطابها ببدائل مغايرة لما حملته الخطابات الكولونيالية.

2-1- الذات الإفريقية وتمثيلات الآخر:

طالما عانت الشعوب الإفريقية من التهميش الوجودي باعتبار الفرد/الأسود فيها يمثل أي كائن من الكائنات عدا الإنسان بقيمه وأصالته واتبائه وتاريخه، ومع القوى الاستعمارية التي فرضت على إفريقيا لزمان ليس بالقصير والعبودية التي مست ذوي البشرة السوداء خاصة، هُشمت حضارة الزنوج وثقافتهم، كما سعى الاستثمار مرتكزا على قوته الاقتصادية إلى محو كل تاريخ القارة السمراء باعتبارها لا ترقى إلى حضارة الإنسان/المركز، وإذا أردنا الحديث عن ذات الفرد الإفريقي وسيكولوجيته التي طالما صورتها الكتابات الأدبية والعلمية الكولونيالية بعدم الاتزان والهمجية ونفسية الزنحي غير السوية، فالحديث سيقودنا حتماً إلى الخلفيات السياسية والاقتصادية لدول إفريقيا التي كانت تحت هيمنة السلطة الأوروبية/الاستعمارية لفترات زمنية ليست بالقصيرة، وما عرفته شعوب إفريقيا من استغلال للأراضي الزراعية والثروات الباطنية لصالح المستعمر، إضافة إلى ما كرسته هذه الأخيرة من سياسات قمع وعنصرية ضد الفرد الأسود، وترسيخها لفكرة الدونية والعبودية لدى الذات الزنجية ومن هنا ظهرت ثنائيات: أبيض/أسود، عبد/سيد، مركزي/هامشي...

لقد صُوّر الإفريقي في النصوص الغربية بالبداية والرجعية، ومن ثمَّ مُثِّلَ الفرد الزنحي خاصة والذات السوداء بتمثيلات معينة خلال فترة الكتابات الكولونيالية، حيث إنه: "يُمثّل الإنسان الطبيعي في حالته الهمجية غير المروضة تماماً، ولا بدّ لنا إن أردنا أن نفهمه فهنا حقيقياً سليماً، أن نضع جانباً كل فكرة عن التبجيل والأخلاق، وكلّ ما نسقيه شعوراً أو وجداناً، فلا شيء مما يتفق مع الإنسانية يمكن أن نجده في هذا التمثيل من الشخصية"2

هذه التمثيلات التي تجلّت في الخطاب الغربي إنما هي من نتاج الفكر الكولونيالي وتخييلات الرجل الأبيض ويُجاز لنا القول هنا بأن الفترة الكولونيالية في أوروبا ساهمت بشكل كبير في بناء شخصية وفكر الرجل

الغربي/الأبيض ومن ثم أعطته سلطة تصوير الآخر وتمثيله وتخييطه حسب تمكّن الذات الأوروبية وفوقيتها واعتزازها بقوتها السلطوية " فالخضرة البيضاء والثقافة الأوروبية فرضتا على الأسود انحرافا وجوديا...وما يُستقى غالبا باسم (التنفس السوداء) هي من إنشاء البيض فالخطاب الغربي خلق الزنجي وجعله ذاتا تتصف بصفات معينة؛ هي أدنى من تلك التي يمتلكها الرجل الأبيض، وفي الوقت نفسه يشعر بالخوف منه، فالزنجي مثير للخوف أو الزهاب phobogène بتعبير فرانس فانون حيث إن الزنجي يمثل الخطر البيولوجي"3

إن صورة الأسود وطباعه وشخصيته سواء أكانت وحشية أو طبيعية، وقيمه الدونية أو المتفوقة ونفسيته المتزنة أو غير السوية...كلها صور لم يقدمها الأسود بل هي في الثقافة الغربية (المركزية الأوروبية وصناعة الآخر) في المرحلة الكولونيالية وتطورها الامبريالي لاحقا، إن الأسود تجسّد بمشاعر البيض نحوه، وتَصوّر بما يحمله عنه الأبيض في مخياله؛ هذه الصور النمطية (وحشية، دونية، همجية...) قدّمت الزنجي وعزفته ومثّلت في الثقافة الغربية رغم ما كانت تحمله من مغالطات وتضليلات لأن الواقع يعكس ما جاء في الخطاب.

يذكر علي شلش في كتابه الأدب الإفريقي الروايات الإفريقية المعاصرة التي حاولت إيصال صوت الذات الإفريقية المنشطية، وتصويرها في رحلتها للبحث عن إجابة واحدة لسؤالها الدائم حول وجودية السود وكيونتهم في هذا العالم "كان على الزنوج أن يدفعوا الضرائب...الزنوج في كل مكان، وفي كل زمان، لقد كان الزنجي صالحا لأن يسجن، صالحا لأن يكون داب من دواب النقل"4

لقد سعت الامبريالية لاحقا إلى ترسيخ هذه السبات في الزنجي ذاته ومن ثمّ جاءت مرحلة التعميم لتجلى في الخطابات الكولونيالية وهي أشبه لحد ما بصناعة الآخر -التي ذكرناها سابقا- وبتعبير آخر اختراعه، تُعد هذه الأخيرة استراتيجية استعمارية تسعى في مجملها إلى تشكيل الآخر لامتلاكه ومن ثمّ نبذه أو تعبيده.

تعكس رواية زجاج مكسور للكاتب الكونغولي آلان مابانكو بؤس حياة الزنوج في بلدانهم والبلدان الأوروبية، والعنصرية التي يمارسها البيض اتجاههم، كما يُقدّم الكاتب من خلال الأسلوب الفريد الذي اختاره بترك حرية الحديث لشخصياته صورة شاهدة عن كل ما تعانيه ذات الزنجي بسبب أصوله أو لنقل لونه "الأيام التي كان الزنوج يعيشون فيها حياة مثل تلك التي كان المستعمرون الفرنسيون، يقدمون صورتها المتخلفة للأوروبيين في معارضهم الدولية حتى يجعلوا من الزنوج مادة سخريّة تضحك البيض"5

إن مسألة تشظي الذات الزنجية أمر جليّ وواضح في السرد الروائي الإفريقي، حيث تتداني فيه رؤية الكتاب الأفارقة ومشاعرهم إزاء التأثير بالأوروبي والتسليم بأمر التابع، وتبدو حالة التشظي والانقطاع في الرواية ضمن جدلية الانتماء والاعتزاز التي تناولها الروائيون في أغلب الخطابات الإفريقية، يتعلّق الإفريقي بالقارة الأم/السمراء، لكنه يؤمن بفكرة ارتباطه واتباعه لكل ما هو أوروبي/أبيض، فينتهي إلى هذا ويتطلع إلى ذاك، يشعر باتمائه التاريخي والعرقى لإفريقيا لكن تُغريه عادات البيض وحضارتهم وتحضرهم.

في رواية فتى المنجم لبيتر أبراهمز يُصور لنا الكاتب مدى معاناة الزنجي من لونه وثقافته فتبدو نتيجة المثاقفة مع الآخر المستعمر وحالة الانبهار التي يتعرض لها المستعمر.

"إني أريد عادات البيض أشياءهم، أريد أن أكون مثل البيض، إني في داخلي لست سوداء، ولا أريد أن أكون سوداء، أريد أن أكون مثلهم"6

نجد الشخصية ذاتها في روايات إفريقية كثيرة، يصوّر الكاتب فيها المحاولات الدائمة التي يبذلها الزنحي ليصبح أيضا في تعامله ولغته وحياته وتحضره، فتعيش الشخصية حالة التشظي عن كل ما هو أسود (والأسود هنا ترسيخ لكل ما هو دوني؛ هي فكرة تحدث عنها فانون في كتابه بشرة سوداء أفنعة بيضاء) لتحاول في كل مرة أن تعيش حياة البيض.. فيبهرها كل هو أبيض.

يُصور آلان مابانكو في روايته "زجاج مكسور" الزوج في رحلتهم للبحث عن الذات وكل ما تحمله من مشاعر وما تحس به من ألم وحزن وما تعلقة من آمال، حيث تحكي الشخصيات رحلة البحث عن السعادة الإنسانية التي يطمح إليها الإنسان منذ الأزل سواء أكانت هذه السعادة في السواد أو البياض "صدقي يا زجاج مكسور لقد كنت رجلا طيبا وناجحا في فرنسا قادرا على أن أعيش عيشة جيدة من حرّ مالي الذي أكسبه بعرق جبينى... وكان هناك ما يجعلني أعتقد أنني يوما ما سأكون من ضمن الفرنسيين الذين يتمتعون بمعاش محترم في نهاية خدمتهم الوظيفية وذلك لأن نظام المعاشات في بلدنا الكونغو هو نظام زبالة ولم تعد لنا فيه أية ثقة..."7

يرافق الذات الزنحية دائما هاجس اللون، وإحساس العجز والشعور بالدونية اتجاه الآخر الأبيض، رغم ما تحمله من مشاعر إنسانية وقيم أخلاقية نبيلة، فالتعميم الذي كرسه الخطاب الثقافي والعلمي ضد الأسود جعله ينفي وجود الفروقات بين السود "فكيف لا أستطيع الذهاب؟ هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها أيضا، أريد أن أخبرهم كيف أحس، وكيف يحس السود"8

إن الروايات الإفريقية تحمل رؤية تتوافق مع أهم الكتابات الفلسفية المعاصرة التي ترمي إلى رد الاستعمار والثورة ضد كل ما تحمله استراتيجيات الامبريالية من تقزيم للآخر الهامشي والإعلاء من الذات الغربية/الأوروبية في مركزيتها ومثالياتها "واننا إذ قرأ (لا تبك يا ولدي) فكأننا قرأ إدوارد سعيد في مدونة أدبية؛ فهي إلى حد كبير معالجة لمواضيع تطرق إليها إدوارد سعيد في كتابه (الثقافة والامبريالية)، هذا إن لم نقل أن جل روايات نجوي واثيونغو تتفق مع كتب سعيد، لأنها تعالج قضايا الإمبريالية بآلياتها المختلفة، بل إن واثيونغو يحاول من خلال رواياته تبين خطرها الداهم في صورة مؤسسات اقتصادية وتعليمية وجمعيات خيرية ومنظمات حقوقية"9

لقد عُرفت المركزية الأوروبية كاستراتيجية تعمل بوعي لجعل أوروبا المحور المألوف والطبيعي بالنسبة للآخر، جرى ذلك من خلال تشكيل الثقافة المركزية/الأوروبية/العالمية من جهة، وصناعة الآخر وتشكيل صفة التابع من جهة أخرى، كذلك إنشاء المعيار أو المقياس لزيادة نسبة التفاوت بين الذات/المركز والآخر/الهامش، ولقد استعملت الامبريالية الثقافية استراتيجيات ترتكز على السلطة السياسية للشعوب الإستعمارية ممثلة في الخطاب الكولونيالي الذي يُسيّد الأبيض -خطاب القوة- ولقد أوضح هذا الخطاب قدرته

وخبرته " في اختراق الثورات التحريرية بغية إبقاء الاستعمار في شكل جديد يتماشى وتوجهات أجيال ما بعد الاستقلال، في حين أننا حينما نريد أن نفهم قانون فإن (فتى المنجم) لبيتر أبرهامز كفيلا بذلك...ذلك أن فتى المنجم تعالج معظم الحالات النفسية التي تطرق لها قانون وشرحها في (بشرة سوداء) بينما (الصوت) لأوكارا فهي إلى حد بعيد نقد لأفكار كتابي (صدام الحضارات لصامويل هنتنغتون، ونهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما)"10

عمل الاستعمار على ترسيخ عبودية الرجل الأسود، وجعلها أولى الجرائم التي يُحاسب عليها بعيدا عن كون هذا الأسود طبييا مفكرا...فالنخبوي الأسود لا يُحقق قيمة الإنسان عند الأبيض، معيار الإنسان ونسبة تحضره أو ارتقاءه تُقاس بلون البشرة والانتماء العرقي، تنتمي الشعوب الأوروبية البيضاء إلى أصول عريقة تضرب في عمق التاريخ، إضافة إلى ما خلفه الإنسان الأوروبي من فكر فلسفي وإبداع أدبي ومعرفي عُذ الركيزة الأولى والنموذج الخالد الذي تطمح إليه باقي المعارف الشعبية، بينما لا اتماء للشعوب -الآخريّة- ولا تاريخ لغير البيض ولا سلطة إلا لصاحب العقل (تسييد العقل في مرحلة التنوير) هكذا عملت الخطابات الكولونيالية وخطاب القوة خاصة على تكريس هذا المعيار والالتكاء عليه لقرون عدة.

"إن كون الإنسان زنجيا صنعة تأتي في ذيل دميع الصنائع، وهي ليست صنعة، بل عبودية. فهل هزأ السود بلون الرجل الأبيض؟ هل ازدروا عادات الرجل الأبيض؟ كلا، بلا شك، فالأسود كان أسود، والأبيض كان أبيض.. غير أن البيض هزأوا بالسود بسبب لون بشرتهم، وبسبب سوادهم صاروا محط التقريع والكره، وكان أفضل أن يكون المرء أحقر كلب في الغابة، كان أفضل أن يكون نجوهيلي القرد ذا الشعر الأبيض، أو أوتاجووا القرد البكاء، أو باكوي الشمبانزي ذا وجه الكلب، ومع أن البيض يزعمون أن الزواج يشبهون القردة فهم يتركون القردة وشأنها"11

تبقى الذات المركزية البيضاء في بُرجها العاجي لتتغنى وجود ذات أخرى تختلف عنها وترتقي إليها في كينونتها وقيمتها وأصالتها، بينما تبقى الذات الإفريقية السوداء تُعاني في هامشيتها، تطمح للبياض وتبذل كل سواد، ثم تسعى في مرات أخرى لإثبات ذاتها وهويتها وعراققتها، ولتواجه الآخر تستحضره ضمن خطاباتها السردية لتفوضه وتنفيه، فتبدو الذات الزنجية ثابتة حينما ومتشظية في أحيان كثيرة.

ثانيا: أدب إفريقي أم هوية وطنية؟

2-1- الأدب الزنجي من تمهي اللغة إلى الخطاب المضاد:

يُعد الأدب الإفريقي من بين الخطابات التي جاءت في الفترة ما بعد الكولونيالية لمواجهة الخطاب الكولونيالي ولمناهضة الاستعمار ومقاومته، ولقد شكل هذا الأدب جزءا مُغيبا لنا نحن سكان إفريقيا، فلم نطلع عليه حتى فترات لاحقة أي بعدما علت أصوات الكتاب الأفارقة مع حركة الزوجة خاصة والثورة التي أحدثتها كتابات فرانز فانون وقبله أستاذة امي سيزار، ومحاولات تقويض الفكر الاستعماري التي سعت إليها خطابات السود، لكن الأدب الإفريقي عانى ولا يزال من عائق اللغة فكُتِب باللغة المحلية إلا أنه لم يلقى البلوغ والصدى

الذي رامه الكاتب، ثم جاء باللغات الثلاث (فرنسية، إنجليزية، برتغالية) فتأهله بذلك مع لغة المستعمر مما أحدث مفارقات بين اللغة والمعنى/الهدف، يقول جون بول سارتر في هذا الصدد: "لقد أحكم المستعمر سطوته وجبروته على العقول...يبقى هنا وبقي هنا دائما، حتى أثناء غيابه وفي أكثر الاجتماعات سرا، ونظرا لكون الكلمات أفكارا فإن الأسود عندما يعلن بالفرنسية أن يرفض الثقافة الفرنسية فإنه يأخذ بيد ما يعبده بالأخرى، وينصب في نفسه آلة تفكير العدو تماما مثل المسحقة...المفردات المعدة...لا تصلح في تقديم وسائل للأسود قصد الكلام عن نفسه وعن همومه وآماله" 12

تأخذ اللغة إذن دورا فعالا ورئيسا للتعبير عن أفكار الكاتب وانفعالاته وشعوره، بوعي وبغير وعي، فالكلمات أفكار -على حد تعبير سارتر- ومتى خضعت الكلمات لسلطة المستعمر بقيت الأفكار تائهة مُثقلة بالمعاني، ولهذا نعتبر من وجهة نظرنا- أن الأدب الإفريقي إنما جاء بلغة الآخر للتد عليه وبلغته، لكن وفي أحيان كثيرة يمكن للغة المترد التي يستعملها الكاتب للتعبير عن همومه وآماله أن تكون عائقا أمامه بدلا من كونها وسيلة للكلام "فتكون لغة المستعمر بمثابة حاجز يمنع المستعمر من أن يتكلم عن نفسه وهويته، لأنه في واقع الأمر يكون ناطق بلغة لا تمثله لكي يعبر بها عن نفسه، هنا يكمن التناقض أو عدم الإمكان لهذا الفرد المقموع أن يعبر عن نفسه وهويته، إلا إذا تكلم بلغته التي تمثله بدون حواجز وبكل يسر، وهذا التغريب اللغوي هو أحد أهم الآثار التي خلفها الاستعمار في هوية الذوات المستعمرة" 13

لأن اللغة تُعد أحد أهم مقومات الهوية إضافة إلى التاريخ والدين، فهي تُمثلُ وثيقة هوية صاحبها وبالتالي يمكن للكاتب/المُخاطب التعبير بيسر عن كل ما يحمله من مشاعر وأفكار، خاصة إذا كان يحمل هموم أمة وقضايا واقعية، فيكون الخطاب هنا وسيلة للتفاوض والتد وفي أحيان كثيرة المواجهة، إضافة إلى الثقة التي تُقدّمها اللغة لكاتب النص، وهذا ما ذهب إليه نغوي واثينغو noghoghe wathengho في كتابه (تصفية استعمار العقل) "نجد نموذجا للكاتب ما بعد الكولونيالي الزنجي الذي عبّر عن رغبته في تحرير الأدب الإفريقي من لغة المستعمر، والدفاع عن مشروع كتابة سرديات مضادة؛ حيث يركز الكاتب على اللغة من حيث كونها أداة اتصال، وحقل ثقافي يساهم في تحقيق الانسجام الثقافي بين الفرد وثقافته وبيئته المحليتين، لهذا سعى إلى مناقشة الموضوع من منظور لغة الأدب الإفريقي المكتوب باللغات الأوروبية (أي لغة المستعمر)" 14 وهذه المفارقة في خطاب السود جعلت من الأدب الإفريقي يتعرض للتشكيل الثقافي أو الإغرامية* التي تُعاني منها الشعوب المستعمرة نتيجة تفوق ثقافة الغالب على ثقافة المغلوب.

يتساءل نغوي في كتابه: "كيف يمكن أن يعبر الكاتب الإفريقي عن إفريقيته بلغة غريبة عنه؟ من هنا كانت دعوته إلى احتضان اللغات المحلية، واعتناق التراث الإفريقي المحلي، فلم تعد اللغة إذا وسيلة تعبير أو تواصل فحسب، إنما هي تشكيل ثقافي شديد الحصوبة والحساسية" 15

فاللغة بحسب نغوي هي كيان وائتاء ثقافي قبل أن تكون وسيلة للتعبير أو التواصل، ومن ثمّ فالكتابة بلغة المستعمر تُعدّ إعلانا صريحا من الكاتب باتّناءه -بوعي منه أو بدون وعي- لثقافة الغالب، هذا عدى

الإشكاليات التي أفرزتها مثل هذه الكتابات لأن " الكتابة بلغة المستعمر في واقع الحال قد أفرزت أدبا إشكاليا من حيث هويته ومن حيث نسبه، ناهيك عن تمثيله المتواطئ في كثير من الأحيان مع الثقافة المركزية المستعمرة، إذا يرتسم مشروع غوغوي في مساندته للأدب المحلي الأصيل الذي يحتفي بالثقافة الإفريقية على حساب الأدب الرسمي الذي كان في الغالب أثناء فترة الاستعمار أدبا كولونياليا، حيث يؤكد غوغوي على ضرورة التعبير باللغة الأم الأصلية لإفريقيا والإفلاع عن استعمال لغة المستعمر" 16

2-2- خطاب الزوج في مقاومة المهينة الكولونيالية:

لقد ساهم الأدب الإفريقي بشكل كبير في التحرير الوطني، فكانت الكتابات الداعمة لحركة الزوجة بمثابة تمرد على السياسات الإستعمارية والأيدولوجية لأوروبا، ولأن الأدب يُعد في أحد اتجاهاته بعدا سياسيا فقد عبّر في مضامينه عن الحرية الوطنية لإفريقيا، ومن ثمّ سعى إلى البحث في الجذور واستحضار التراث بهدف تأكيد هويته التاريخية وتقديم ثقافته الوطنية، لتجاوز كل التمثيلات الغريبة الساحرة، وهدم كل الصور النمطية الشائعة، فجاء الأدب الإفريقي كسلاح مقاومةٍ وتحدي لكل تكريسات الخطاب الكولونيالي، ولهذا فقد " أنتج الأدب الإفريقي -بحسب إدوارد سعيد- أسلوبا أدبيا جديدا، وكان بمثابة الإعلان عن بزوغ ثقافة جديدة من الهامش التاريخي، فظهر حركة الزوجة التي كانت تعبيرا عن صرخة الإنسان الأسود، ورغبته في أن ينتقل صوته إلى العالم، وقد أسس رؤية ثقافية جالية تقوم على القيم الإفريقية، فكانت تمثل حركة طلائعية، على غرار المثقفين الذين هاجروا إلى المستعمرات الأوروبية إلى العالم الغربي، فكانوا مصدرا من مصادر الحداثة الأدبية والفنية، وساهموا بقدر كبير في نقل النزاع حول فكفكة الاستعمار من الأطراف إلى المركز" 17

إن رغبة الكتاب السود تجاوزت التعبير عن هموم الزوج وآمالهم، وایصال مأساة استعبادهم من طرف البيض، حيث بدأ المثقفون خاصة أولئك الذين درسوا داخل الجامعات الأورو أمريكية، فنعرفوا على سيكولوجية المستعمر، وشخصية الأبيض التي كانت فترة الحداثة العامل الأول في بنيتها- بالكتابة حول الفكر الغربي، وما رسخته القوى الاستعمارية لدى الشعوب المستعمرة، ومن ثمّ كان البحث في استراتيجيات المركزية الغريبة الدافع الأساسي لظهور حركة الزوجة التي نادت بتحرير الإنسان الأسود وطنيا، وعقليا "هذا هو الأمر الذي دفع نجوحي واثيونغو إلى كتابة (تصفية استعمار العقل) فهو يرى أن الاستعمار ما يزال السبب الأساس للعديد من معضلات إفريقيا، وقد وقع العديد من مثقفي إفريقيا خطة إلى حد لم يعد فيه بعضهم قادرا على الشفاء، ولا على معرفة الأصول الاستعمارية ذات (فرق تسد) في تفسير الاختلافات الثقافية والصدمات السياسية تفسيرا يستند إلى الأصول الإثنية للمختلفين" 18

إن الثورة التي أحدثتها كتابات امي سيزار وفرانز فانون نقلت المسؤولية بعدها إلى الكتاب الأفارقة والمُستشرقين للمساهمة في البحث عن التاريخ الضائع لإفريقيا وإعادة بناءه، فكانت رحلة الكاتب الإفريقي انطلاقا من ماضيه للبحث عن الملامح الهوياتية والخصائص الذاتية والاختلافات العرقية، فكان التشكيل الثقافي والحضاري لإفريقيا مهمة كتابها وأدباءها، ثم إن التحرر العقلي من الاستعمار وثقافته هو رسمٌ لطريق

المستقبل، وتأسيس لبنية اجتماعية وسياسية مقوماتها اللغة المحلية والاختلاف العرقي الذي تزخر به إفريقيا، حيث أنه كان الأداة الاستعمارية الأولى للسيطرة على البلاد الإفريقية -سياسة فرق تسد- وأسئلة المثقفين حول هذا الاختلاف كانت استعادة الثقة بوجود ذات إفريقية مختلفة ومتشابهة أولا، ثم تمهيدا لعملية التحرر الوطني والثقافي ثانيا، لأن المثقف يعي جيدا سياسة الاستعمار والممارسات التي يتكأ عليها لتنفيذ مخططاته للاستلاء على الفرد نفسيا وعلى أراضيه لاستغلالها، يقول زهير بختي دحمور في كتابه تجليات العرقية في الأدب الروائي الإفريقي: "كان مبدأ هذا التخطيط هو جعل كينيا مستعمرة للرجل الأبيض، وطبق لذلك النظام الإقطاعي فاعتبر الأرض ملكا للتاج البريطاني، على أن يكون أبناؤها الأصليون مستأجرين؛ وعليه يسهل نزع الأراضي منهم ونقلهم إلى مكان آخر طبقا لما تراه السلطات البريطانية، كما تساهم الحكومة في دعم الفلاحين الأوروبيين لمساعدتهم في استغلال الأراضي، وحمايتهم من الخسائر ومنحهم أجود الأراضي وأوفرها إنتاجا حتى يحتكروا القوة الاقتصادية دون الإفريقي الأصل" 19

إن التحليل الذي قام به فرانز فانون في كتابه الذي يحمل عنوان "معدبو الأرض" أفرز مجموعة من الأسئلة حول مصير الدول المستقلة حديثا في عملية تحررها السياسي والاقتصادي أولا ثم التحرر الثقافي والتخلص من صفة التابع لأن "التحرر كما صاغه فانون في كتابه هذا لن يكتمل ما لم يتم تحرير الإنسان من الاستيلاء الذي فرضه المستعمر عليه، وهي عملية لا يمكن أن تتحقق من دون اللجوء إلى العنف، إن محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف، لأن الذي يأتي بالعنف لا يمكن أن يخرج إلا بالعنف، إنه إحلال وجود مكان وجود آخر دون المرور بمراحل انتقالية فالعالم المستعمر منقسم إلى عالمين، والحد الفاصل بين العالمين تشغره القوى البوليسية والقمعية" 20

تسرد إحدى شخصيات رواية زجاج مكسور حالات القمع والتعدي التي مارسها الاستعمار ضد الأفارقة لمجرد اختلاف اللون تقول: " فلا أحد يستطيع أن ينسى حتى الآن أن البيض هم الذين احتلوا بلاد السود وأن البيض هو الذين حوّلوا السود إلى الديانة المسيحية وأن البيض هم الذين نقلوا السود في باطن السفن كما تنقل الحيوانات إلى أسواق النخاسة في أوروبا وأمريكا" 21

إن الأحداث العنيفة التي تعرض لها الزوج، والممارسات اللا أخلاقية التي فرضها المستعمر على الشعوب المستعمرة الإفريقية تحت راية تحضير الفرد الزنجي وترويضه وتنقيفه، جعلت الإفريقي يدرك تماما أن هذه السيطرة والعنف لا يمكن التخلص منها إلا بعنف شبيه، فالعنف لا يولد إلا عنفا، وأنه لا يمكن تجاوز الوضع القمعي والعنف الممنهج ضد الزوج إلا بعنف مضاد، يقول فانون في هذا الصدد: "أن حالة انحلال الشخصية وفقدان الفرد لهويته النفسانية إلى درجة فقدان الشعور بجسده، وإحلال الديالكتيك الموجودة بين جنون الاضطهاد عند المستعمر وحنون الارتياب عند المستعمر، تعكس المناخ النفسي الذي تسبح فيه الذوات الكولونيالية" 22

كان من الطبيعي أن يصاحب هذا العنف نتائج نفسية لكلا الطرفين -فقدان المستعمر لهويته النفسية والشعور بالاضطراب والخوف لدى المستعمر مع تماهي بعض الخصائص الثقافية بينهما- فبعد مرحلة السيطرة واستعمال القوة للتوسع والهيمنة من طرف القوى الاستعمارية، جاءت مرحلة الاستيطان والتي عُرِفَتْ بتزيث المستعمر وهدوءه بعض الشيء لأنه أصبح منهكا، وبدأ بالبحث عن وسائل أخرى للسيطرة كالمفاوضات والحوارات ومحاولات التواصل مع الآخر -المستعمر- وهو ما يُعرف بالبحث السياسي، يحاول المستعمر من خلاله إيجاد حلول سلمية للتعايش مع الطرف الثاني مع مراعاة المصالح الذاتية بطبيعة الحال، والمحافظة على السلطة والهيمنة على الأراضي الإفريقية واستعباد شعوبها.

عرفت هذه المرحلة ظهور روايات إفريقية كثيرة، "يمكن أن يكون نجوجي واثيونغو زعيم تيارها، ثم بعد الاستقلال جاءت موجة كتاب لا يرون مفهوم الدولة والهوية إلا في حدود الطريق الذي رسمه الآخر (الأبيض) وهذا يمكن أن نطلق عليه مصطلح الهجنة كما أطلقت هومي بابا" 23

هكذا كان للأدب الإفريقي دورٌ فاعل في حركة التحرير الوطني، والثورة التي قادها المثقفون الزنوج كانت بمثابة السجل التاريخي الذي يحفظ الوقائع والأحداث الوطنية، فيستلهم التراث ليثبت هوية الإفريقي الوطنية والثقافية، ويدعو لتأكيد انتماءه عبر تقبله للاختلاف، كذلك يؤمن الكتاب أمثال: سوينكا وأنشيبي ونغوي وغيرهم برسالة الإنسان الأسود الواجب إيصالها للعالم، كما أنهم يعون ضرورة مواجهة اللا إنسان الأبيض، فالأدب يُعدُّ روحا ترتبط بجذور الماضي ويتغذى بأحداث الحاضر وينمو ويتطور باستشراف المستقبل، لهذا كان الوطن والحرية محور الروايات الإفريقية ومرتکز السرد والخطابات التي أنتجها الكتاب الأفارقة في عصرنا هذا، فالروائي الإفريقي اليوم يستمد حكاياته من واقعه المعاصر، ومن الأحداث التي يُعانيها الفرد الأسود حتى يومنا هذا نتيجة الأفكار التي غرسها المستعمر لفترات طويلة من الزمن، ورغم اختلاف أساليب الكتابة لدى الأفارقة وتمايز آراءهم وتوجهاتهم لكن الوطن، والتاريخ والهوية الإفريقية تُعدُّ بؤرة الحكي لديهم والشاغل الرئيسي في خطاباتهم.

ثالثا: العرقية عنوانٌ للهوية في خطاب السود :

إن صراع الزنحي مع ذاته نتيجة المعارف والأفكار التي نشأ عليها في ظل ما قدّمه له الأبيض، جعله يُعيد النظر في مجموع المعطيات الهوياتية والتشكيلات الاجتماعية الإفريقية القائمة على الاختلاف العرقي الذي طالما عرف صراعات وحروب أهلية وفتن كانت تدعمها القوى المركزية بهدف استغلال ثروات إفريقيا الاقتصادية في وقت انشغال الإفريقي بالانتصار لقبيلته، من هنا كانت العرقية واختلاف القبائل والأصول ضمن المشروع السرد الذي أسسه المثقفون الزنوج، وكما ذكرنا سابقا هذا الاختلاف العرقي كان الأداة الداعمة لخطط الاستعمار واستراتيجياته للسيطرة على الإفريقي اقتصاديا وفكريا ومن ثمّ ثقافيا، في هذا الصدد يطرح سليم حيولة في كتابه استراتيجيات النقد الثقافي أسئلة حول العلاقة القائمة بين انتماء الفرد العرقي وثقافته يقول: "هل هنا علاقة بين العرق والثقافة؟ أو هل قيمة ثقافة ما تعود إلى تفوق عرقي؟ عاجل الأنثروبولوجي

الفرنسي كلود ليفي ستراوس هذه العلاقة، ينفي ليفي شتراوس أن يكون العلم البيولوجي يؤكد على تفاوت الثقافات من حيث بنية الاستعدادات أو الإمكانيات، مؤكداً على أن اختلاف الثقافات لا يعود إلى التفوق العرقي وإنما يعود في نهاية التحليل إلى معطيات تاريخية وجغرافية وسوسولوجية...²⁴ وفكرة التفوق العرقي والتفاوت بين بني البشر ترسيخ خطاي طرحت السرديات الكولونيالية للسيطرة على الشعوب المستعمرة، فمثلاً جعل الفرد الأوروبي ينحدر من عرقٍ أبيض أصيل له علاقة تامة بنفي وجود الأسود في التاريخ الحضاري والوجود الإنساني، إضافة إلى إنكار وجود حضارات تاريخية عرقية قديمة تختلف عن حضارة البيض "فليس هناك من تفاوت بين البشر عرقياً لأنهم متساوون جميعاً، والفروقات الموجودة بينهم هي فروقات مشروطة بسياقات معينة ونتيجة ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية خاصة، وليست راجعة إلى خصائصهم البيولوجية، بينما توهمنا الخطابات الاستعمارية أن لها علاقة بالمؤامرات العرقية"²⁵ فتحضر الأبيض وامتلاكه لمعارف وعلوم كثيرة ليس له علاقة بامتائه العرقي بل راجع إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية والاستقرار السياسي والوطني الذي عاشه هذا الأبيض، على عكس الظروف القاسية والممارسات العنيفة التي كان الأفارقة والـسود خاصة يعانونها داخل أوطانهم، ومن ثم فالعرق لا دخل له بسلوكيات الفرد ولا شأن له بتحضره أو تخلفه.

لهذا حاول الروائي الزنجي في كل مرة أن يطرح قضية العرق وحالة التمايز والاختلاف التي يعيشها أفراد المجتمع الإفريقي، فبين من خلال كتاباته "مدى الصراع العرقي في الوسط الكولونيالي كما يوضح مدى معاناة الأسود من تسلط الأبيض عليه، وقد ذكر نجوي واثيونغو أنه يمكنك أن تتعرف على أراضي الأهالي السود بسهولة، لأنها حمراء اللون خشنة وضعيفة، في حين تتسم أراضي المستوطنين البيض بلونها الأخضر، كما أنها ليست مجرأة إلى شرائح صغيرة، فقد استحوذ المستعمرون البريطانيون على أراضي الوطنيين أو من شركة إفريقيا الشرقية منذ القرن 19م وطبقت بذلك سياسة نقل الأراضي إلى أيدي البيض"²⁶ هذا الصراع العرقي كانت نتيجته سيطرة الدول الأوروبية المستعمرة على الأراضي الإفريقية واستغلال ثرواتها، فجعلت - حسب الأبيض - الفرد الأسود في ظل انشغاله بالقتل، غير قادر على خدمة أراضيه وزراعتها والمساهمة بذلك في تطوير وطنه واقتصاده، فنقلت أغلب أراضي السود إلى البيض.

تُساهم الهوية الوطنية بشكل كبير في إثبات ثقافة المجتمع أو الانتماء الثقافي فهي تُعدُّ "وسيلة لتوحيد التنوع الثقافي، ومن ثم بدلا من التفكير في الأمم والثقافات الوطنية ككل، ينبغي أن نفهم الوحدة أو الهوية كنتيجة للسلطة الخطائية التي تغطي الاختلاف، والأمم تتميز بانقسامات داخلية عميقة ومجموعة من الاختلافات ومن ثم فالهوية الوطنية الموحدة تكون كبنية عبر سرد الأمة"²⁷ أي أن الهوية تتمثل في خطاب الأمة وتظهر كوحدة ثقافية عبر سردياتها، فتقدم مثلاً في شكل حكايات وصور أو ربما وقائع وأحداث -أي التجارب التاريخية المشتركة- كما أنها تظهر في مجموع العادات والتقاليد والطقوس التي يسردها الروائي، كما أنها تنطوي على مجموع المعاني المشتركة وهذا ما يظهر في الثقافة الشعبية للمجتمع (حكم، ألغاز، رموز، أغاني شعبية،

خرافات...) فيُساهم الأدب بذلك مع وسائل الإعلام في بنية الهوية الوطنية مع تمثيل وإثبات الهوية الثقافية لمجتمع ما.

لهذا أراد المثقفون الأفارقة رفع راية الانتماء والارتباط إلى إفريقيا، والقيام في وجه كل المخططات والأفكار التنويرية، ثم التمرد على الفوقية/ الأوروبية التي سعت إلى السيطرة على الدونية/ الإفريقية، فحاول الكاتب الزنجي كشف حقيقة الفكر الغربي/ الاستعماري وتفكيك أيديولوجيته من جهة، وتصوير واقع السود الماضي والآني "فالزنجي يريدون إسعاد أصواتهم ورواية تاريخهم الخاص بأنفسهم بدل أن يروى عوضاً عنهم، وفي نهاية المطاف التعبير عن هويتهم الثقافية، ويرى إدوارد سعيد في كتابه "الثقافة والإمبريالية" أن الزنوجة هي في أجلى معانيها؛ وعي الزنوج بالتراث الإفريقي واهتمامهم به والذي يروونه جامعا لهم، وموحدا لمجتمعاتهم ومبعث فخر لهم" 28

يطرح الكاتب آلان مابانكو في روايته إحدى أهم هذه القضايا فيقول: "كانوا يذيقونهم العذاب من كل صنف من ضرب بالسياسات إلى سحق بالأقدام بل إن البيض هم الذين مسحوا حضارات القبائل الإفريقية بالمحاة وأزالوا إمبراطوريات سوداء كاملة من الوجود وحرقوا تماثيل الآلهة السود.... بل أكثر من ذلك لا أحد ينسى أن البيض هم الذين حرقوا وقتلوا كل الثوار السود الذين حاولوا أن يتمردوا على الاحتلال الاستعماري الأبيض ويطالبوا باستقلال البلاد." 29

لقد اتخذ الزنوج من كتاباتهم مشروعا سرديا يعمل على إثبات هويتهم الوطنية واتقاءهم الثقافي، كما سعى الكاتب في محاولات عدة إلى البحث عن الذات والوطن للإنسان الأسود داخل النصوص السردية، "والعمل التقدي الذي يقومون به من أجل التخلص من هيمنة الرجل الغربي الأبيض، قائم على محاولة إنشاء سرديات خاصة به في مقابل ما عمل الغرب على جعله النموذج المهيمن، فالزنوجة هي في أصلها حركة مقاومة للسرديات الغربية الطاغية والمحددة لهم والممارسة لنوع من الهيمنة والسلطة" 30

إن الحوض في مسألة العرقية يتطلب من الباحث في هذا المجال الكثير من الوقت والمزيد من الكتابة، إذ لا يسعنا هذا المقام إلا للقول بأن العرقية لم تكن حديثة العهد بل هي مسألة ضاربة في عمق التاريخ وستبقى ممتدة في هذا العالم الأزلي ما بقي الإنسان بقوته وتسلطه وحب زعامته وسيطرته على أخيه الإنسان، وما نستطيع قوله هنا أن حركة الزنوجة بكتابها أرادت شق الطريق نحو الآخر والمركز مع الأبيض بينما كان هذا الأخير سيد الموقف، إن المثقف الإفريقي اليوم يعي أن مسألة العرقية نشأت فقط لتخدم مصلحة الغالب على الشعوب المغلوبة وهذا ما رمت إليه جل الخطابات الروائية، وأن هوية الأفراد والمجتمعات إنما تفرضها التجارب المشتركة والطبائع البشرية الخاصة وأساليب العيش التي تتباين من مجتمع إلى آخر، يكفي الفرد الإفريقي إذن التحلي بروح المسؤولية اتجاه أمه في لونها الأسود الأصيل، وامتلاءه بمشاعر الانتماء إلى هوية عريقة متجذرة، والاكتفاء بما تحمله إفريقيا من ثقافة وتراث لصد الآخر مع إثبات كينونة الإفريقي وما يحمله السود من مشاعر تزام مشاعر البيض وتفوقها في أحيان كثيرة.

خاتمة:

في ختام بحثنا هذا نستطيع القول أن الأدب الإفريقي أدبٌ اختلفت نشأته عن سائر الآداب، فقد عدّه كثير من الباحثين في هذا المجال أدبا مُغيبا ومهمشا لفترات ليست بالقصيرة، نتيجة الأوضاع السياسية والاقتصادية التي عاشتها إفريقيا، لهذا فقد نشأ كتمرد على المضمون الأيديولوجي لأوروبا الاستعمارية، وقد اشتغلت الروايات الإفريقية على موضوعة الاستعمار وانبثقت من هذه الأعمال أسئلة كثيرة طرحها الكتاب الأفارقة ضمن خطاباتهم، مثل حياة العبودية والاستغلال والخضوع وغيرها، كما حاولت الرواية في فترات لاحقة تفكيك هيمنة الخطاب الحداثي، وتقويض مركزيته..

يُمكننا القول أيضا أن الروايات الإفريقية جاءت كوثيقة فكرية صوّرت التجربة المعيشة بين مجتمعات إفريقيا وما عاناه الزوج وما يعانيه إلى يومنا هذا، إنها صرخة السود كما سهاها -ادوارد سعيد- حيث استطاعت بأسلوبها التلقائي ولغتها البسيطة أن تهدم خطابات الهيمنة وأن تُبرز مكامن الضعف فيها وذلك بتعريضها وكشف محطات التناقض الذي تشهده خطابات القوة/الاستعمار.

طلما حظيت -وما زالت - الآداب الغربية بالدراسة والبحث كونها النموذج العالمي الكامل الذي فرضته المركزية الأوروبية في فترات سابقة من الزمن، بينما عُدّت آداب الأمم الإفريقية أصواتا مهمشة ذلك أنها تحكي حياة إفريقيا السوداء بآلامها وكلومها وربما آمالها، حتى الأوضاع التي يجيهاها السود تحت السيطرة العنصرية واضطهاد الأبيض تسعى هذه الآداب بشكل أو بآخر توصيفها للقارئ/الإنسان على أمل أن يحظى هذا الأدب بالاهتمام والدراسة، يبقى خطاب السود في رحلته للبحث عن الذات والهوية والوطن..

هوامش:

- 1- بيل أشكروفت وآخرون، الإمبراطورية ترد بالكتابة آداب ما بعد الاستعمار ص 72
- 2- سليم حيولة، استراتيجيات النقد الثقافي في الخطاب المعاصر "من القراءة الجمالية إلى القراءة الثقافية" دار ميم للنشر، ط 1، الجزائر، 2021، ص 161
- 3- المرجع نفسه، ص 161
- 4- علي شلش، الأدب الإفريقي، عالم المعرفة (سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب-الكويت) 1993 ص 138-139 نقلا عن Davis, Africa seen by American Negroes p204-203
- 5- آلان مابانكو، زجاج مكسور، تر عادل أسعد الميري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2014، ص 30.
- 6- علي شلش، الأدب الإفريقي، نقلا عن Abrahms, Peter, A wreath for Udomo London: Faber & Faber
- 7- 1956، ص 79 يُنظر أيضا، بيتر أبراهمو، عامل المنجم، تر، محمد عبد الواحد محمد، المجلس الأعلى للثقافة، 2000
- 8- بيتر أبراهمز، فتي المنجم ص 217

- 9- زهير بختي دحمور، في الرواية الإفريقية (تجليات العرقية في الأدب الروائي الإفريقي) منشورات زخة الشهب للنشر الإلكتروني، ط1، 2021 ص 63
- 10- المرجع نفسه، ص 63
- 11- علي شلش الأدب الإفريقي ص 138-139 نقلا عن Davis, Africa seen by American Negroes p204-203
- 12- جون بول سارتر، مواقف مناهضة للاستعمار، تر: محمد معراجي، منشورات ANEP، الجزائر، 2004، ص 20
- 13- محمد حكيمي، تحولات الخطاب الثقافي من التنوير إلى ما بعد الحداثة، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2021، ص 104.
- 14- محمد حكيمي، تحولات الخطاب الثقافي، ص 104، نقلا عن لويس بن علي، إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، ص 68.
- *الإغراب: يقدم قانون مفهوم أطلق عليه اسم "lexotisme" الإغرابية وهذا يؤكد بأن المحتل يهدف إلى إنتاج ثقافة جديدة تتلاءم والواقع المفروض على الآخرين، من أجل إيصال الشعوب إلى مرحلة ثانية من اليأس، في هذه المرحلة يفرض المستعمر سيطرته بواسطة حجج مختلفة تجعل العرق الإفريقي مثالا، ينفي نفسه ويشترك العرق المتفوق الأبيض معتقداته وعقائده، وبعد تصفية نظمهم وانهيار البنى التحتية الثقافية لديهم، لم يبق أمام السكان الأصليين سوى الاعتراف مع المحتل بأن (الله لم يعد لجانهم) وبأن العصر الغربي المتفوق في خطابه وأدواته سيكون هو العنصر المفضل " يُنظر: محمد حكيمي 89-90-91
- 15- المرجع نفسه، ص 104.
- 16- المرجع نفسه، ص 105.
- 17- محمد حكيمي، تحولات الخطاب الثقافي، ص 105، نقلا عن لويس بن علي، إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، ص 326.
- 18- نجوي واينغوا، تصفية استعمار العقل، تر: سعدي يوسف، دار التكوين، دمشق، دط، 2011 ص 16
- 19- زهير بختي دحمور، في الرواية الإفريقية (تجليات العرقية في الأدب الروائي الإفريقي) ص 43
- 20- محمد حكيمي، تحولات الخطاب الثقافي، ص 90، نقلا عن لويس بن علي، إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية، ص 35.
- 21- آلان مابانكو، زجاج مكسور، ص 96-97
- 22- فرانز فانون، معذبوا الأرض، تر: أحمد منور، موف للنشر، دط، الجزائر 2006، ص 25
- 23- زهير بختي دحمور، في الرواية الإفريقية (تجليات العرقية في الأدب الروائي الإفريقي) ص 46-47
- 24- سليم حيولة، استراتيجيات النقد الثقافي، ص 163
- 25- المرجع نفسه، ص 163
- 26- زهير بختي دحمور، في الرواية الإفريقية (تجليات العرقية في الأدب الروائي الإفريقي) ص 42
- 27- كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، تر، جبال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة 2018، ص 385
- 28- سليم حيولة، استراتيجيات النقد الثقافي، ص 163-164
- 29- آلان مابانكو، زجاج مكسور، ص 97
- 30- سليم حيولة، استراتيجيات النقد الثقافي، ص 164

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- سليم حيولة، استراتيجيات النقد الثقافي في الخطاب المعاصر "من القراءة الجمالية إلى القراءة الثقافية"، (2021)، دار ميم للنشر، ط 1، الجزائر.
- 2- علي شلش، الأدب الإفريقي، (1993)، عالم المعرفة (سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت).
- 3- بيل أشكروفت وآخرون، الإمبراطورية ترد بالكتابة آداب ما بعد الاستعمار، النظرية والتطبيق، تر: وتقديم خيرى دومة، دار أزمنة للنشر والتوزيع، 2005.
- 4- آلان مابانكو، زجاج مكسور، (2014)، تر: عادل أسعد الميري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- 5- زهير بختي دحمور، في الرواية الإفريقية (تجليات العرقية في الأدب الروائي الإفريقي)، (2021)، منشورات زخة الشهب للنشر الإلكتروني، ط 1.
- 6- جون بول سارتر، مواقف مناهضة للاستعمار، (2004)، تر: محمد معراجي، منشورات ANEP، الجزائر.
- 7- محمد حكيمي، تحولات الخطاب الثقافي من التنوير إلى ما بعد الحداثة، (2021)، دار ميم للنشر، ط 1، الجزائر.
- 8- نجوي واثينغوا، تصفية استعمار العقل، (2011)، تر: سعدي يوسف، دار التكوين، دمشق، ط 1.
- 9- فرانز فانون، معذبوا الأرض، (2006)، تر: أحمد منور، موفم للنشر، ط 1، الجزائر.
- 10- كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، (2018)، تر: جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة.